رجل من خشب !

قصة بقلم فاضل السباعي

قال له المجند على الباب :

– انت لا تصلح للقتال .. ألم أقل لك ؟ .

فأحس – في خروجه – ببراكين من الالم تثور في اعماقه . انه ليفوق والله كل المقبولين دونه في القوة ومضاء العزيمة . ماذا ؟ أعيبه ان رجله من خشب ؟ ولكنه يستعملها كما يستعمل اليمنى السليمة .. انها لا تؤلمه ولا تعيقه في وقوف او مسير ..

وابتعد عن الباب الى الرصيف المقابل . ووقف يتطلع في شوق ، يسرق نظره الوافدون الى مكتب التطوع والخارجون منه ... آه ان يسراه سليمة كاليمنى ، اذن لما رد دون امانيه .

واقبل نفر من اولاد حارته : هذا فاتح ومحمد ورمزي وخالد ومعين.. انهم يرغبون بالانتساب الى منظمات المقاومة الشعبية.. وانهم لا ريب سيخرجون بعد قليل تتطلق وجوههم بشرا ، وقد وسد كل منهم الى كتفه بندقية كالعروس في طريقه الى الساحة المجاورة !.. وشعر بالاسى يعتصر قلبه . لو لم يتنبه الضابط الشاب الى رجله ، اذن لما عرف حقيقتها . واولاد حارته هؤلاء ، هل هم اشد منه واقوى ؟. كانوا يعيرونه – اذ يجتمعون في رأس الحارة مساء للسمر – بانه سقط لا خير فيه ، فيتحداهم بجهامته ان ينازلوه ، فلا يظفر عليه في النزال احد . وانه – اللحظة – ليجد في نفسه القوة لان يدحر منهم اكثر من واحد مجتمعين .. ولكن ، ما يفيد ذلك وهاهم اولاء يبلغون غاية المنى في حين رد هو دون امانيه ؟.

وبصر بثلة من الفتيان ينطلقون من الباب قدامه ، يضم كل منهم الى نفسه بندقيته صنيع المحب المشوق ، ويهرعون الى الساحة لينتظموا في طابور اخذ في الطول حتى لامس جانبي الساحة او كاد .. انهم جميعاً يقبلون ، فيصبحون في عداد الذين نيط بهم ان ينافحوا عن المدينة دون الغازي اذا ما غره جشع الاستعمار ليراق دمه على أيدي اشداء ميامين . وهل للعدو سوى هذا المصير ؟ لقد لاقاه على ايدي المواطنين العرب في « بور سعيد » وأسقي الكأس حماما كما لم يكن يظن ويحتسب .. هرع كل مواطن في مصر الى الفتك بالعدو المعتدي انى ثقفه في الارض او في السماء ، فلقنوه درساً في البسالة والوطنية لن ينساه اجل .. كل مواطن هناك قد حمل السلاح ليقاوم المغتصب الباغي ، فلم يحرم. هو هذا الشرف العظيم ؟. انه لا يطالب بالذهاب الى « الجبهة » . فلقد حيل بينه وبين ذلك منذ ثلاث سنين يوم طلب « للخدمة » .. انها رجله .. رجله المهيضة التي تحرمه مما يتمتع الرجال جميعاً .. ولكنه اليوم يريد الى ان يناضل في المدينة ضد المستعمر ان ساقه الجنون الى ان يقذف بنفسه في فضائها الملتهب . يريد الى ان يكون في « حامية » حارته القريبة من المطار .. وما تضيره رجله ان هو لطأ في شباك العلية يتصيد الغزاة اذا يهبطون الى ارضه المقدسة هذه التي ينبغي الا تدنسها بعد الاستقلال قدم معتد اثيم ؟.. ولكن الضابط الشاب تفحص – من هنيهات – قوامه بنظرة شاملة ليتوقف عند قدمه اليسرى ويسأله عما اذا كانت سليمة ؟ فأجابه في حماسة الصادق الواثق :

– إنها لا تعيقني عن المشي !

– أسألك : أهي سليمة ام مهيضة ؟.

فأجاب في شبه يأس :

– انها من خشب .

فترفق به الضابط الشاب اذ جعل يقول :

– اشكر لك وطنيتك الصادقة ، يا سيد .. ولكن عليك ان تتخلى عن مكانك لمن هو اقدر واقوى ...

وانصرف عنه الى من يليه.

وحاول ان يفتح فمه ويحتج ويعترض ، ولكن الالم خنق صوته في حلقه . فارتد الى الوراء كاسفاً مخذولا ، وهو يحس بالنقص في كل ذرة من كيانه !

وامتدت به رجلاه الى الامام قليلا حتى اصبح يطل على الساحة من عل ، فرأى الشباب من المواطنين حلقات ، تضم الواحدة عشرين او يزيد ، في وسطها عسكري برتبة « رقيب » يدور عليهم ببندقية شارحاً لهم دقائقها مبيناً كيف يحشى فيها مشط الرصاص وكيف يضغط على الزناد فتستقر الرصاصة في قلب العدو .

يالله ! اي يوم مجيد هذا الذي يفلت من بين يديه ! لقد كانت في نفسه – في الحق – خشية من ان يرد عن سلك المتطوعين ؛ ولكنه كان على مثل اليقين من انه سيصيب قناعة الضابط بقدرته على الدفاع والمقاومة ان هو عرف ما في رجله من هيض غير معيب . ولكن ، لماذا لم يفتح فمه امام امام الضابط الشاب يعترض ويداور ؟ نعم ، انه انهى اليه ان رجله لا تعيقه عن المشي ؛ ولكن هذا الدفع وحده لا يجدي ... كان عليه ان يهدر باصرار ووثوق ، فان لم يجده ذلك فليعص في القاعة لا يخرج منها الا والبندقية على كتفه .. انه يطمح لأن يسجل اسمه في قائمة المناضلين عن الحمى .. المدافعين عن المدينة .. الذائدين – في الاقل – عن الحارة ، عن الاسرة ، عن الام والزوجة والولد .. وهذا من خالص حقه ؛ لقد قالوا : فليتطوع كل مواطن في منظمات المقاومة الشعبية ، وقد تحققت جدواها في « بور سعيد » وفي مصر جميعاً ؛ وانه الآن يقبل على التطوع فتوصد في وجهه الابواب من غير سبب مقبول .

وارتد الى الساحة يرى الى الشباب في الحلقات يمسك كل منهم ببندقيته يقلبها بين كفيه نشوان فخوراً .. في حين لا يقلب هو سوى نار الاسى بين ضلوعه ! كم تمنى – اذ يشهد عرضاً عسكرياً – لو انتزع بندقية احد الجنود وشدها الى كتفه ومشى بها يختال بين الجماهير ؛ ولكن رجله ، رجله المهيضة ، كانت تعيقه عن ان ينخرط في سلك العسكريين . ولقد حسب بالامس انه في سبيله الى تحقيق رغبته الملحاح هذه بعد ان أعلن عن وجوب التطوع لمقاومة العدو . ولكن ، يا لسوء ظنه وحسبانه ، فقد وقفت رجله من جديد عقبة كؤوداً لا تحيد عن طريقه !.

ودوت في فضاء الساحة اصداء طلقات نارية .

يا رب ! . ان بعضهم يطلق الرصاص ، كلهم سيطلقون الرصاص للتدرب . وغدا ، ان اغرى العدو قدره ، فلسوف يلعلع الرصاص في مرح فيخر عديده صرعى لا نأمة ولا حياة .. وهو ، اين موضعه من ذلك كله ؟ أيستطيع ان ينزل الى الحارة مدافعاً ، او يصعد الى السطح يتصيد في الفضاء الغزاة ؟ ولكن ، لا سلاح في يده يذود به عن الحارة او عن النفس ! اذن فموضعه ليس سوى القبو حيث ستلتجيء النسوة من اهله ان حانت الساعة ! لا حول الا بالله .. أهذا دوره في النضال ؟ في القبو المعتم وليس في الشارع المضيء ؟!.

ودوت في الفضاء طلقات اخرى من احدى الحلقات ، فامعن في افرادها .. فاذا معظمهم من اولاد حارته : هذا رمزي على الارض يسدد الى المرمى وتضغط على الزناد فيصيب الهدف .. لقد نهض الآن ، واستلقى موضعه عبدو واطلق بدوره فأصاب .. وتبعه فاتح ، فعلي ، فمحمد ، فخالد ، فأمجد ، فمعين ... يا سلام ! كلهم غدوا جنوداً ، الاه .. لأن رجله من خشب ! ! .

واحس بدفقة بكاء تجيش في محجريه . ودفعته قدماه الى الامام خطوتين ، وفي خاطره عزم على ان ينتزع البندقية من اولهم ولا يتخلى عنها الا وهو جثة بلا روح .. ولكنه سرعان ما ارتد الى الوراء ، ومضى صوب المكتب ، تقرع ارض الشارع رجله الخشبية بعزم ، وفي خاطره رغبة مشبوبة : سيعود الى الضابط الشاب ، ولن يغادر مكتبه الا وفي يده السلاح .

* * *

وامام الباب انتصب المجند لا يتزحزح . فقال له متوسلا :

– دخيل الله خلني ادخل .. اريد ان اقابل الضابط ..

فرد عليه المجند بمزيد من الجزم :

– ولكنك قابلته من ساعة .. انت لا تصلح للقتال ، ألم أقل لك ؟ رجلك لا تساعدك ...

فانفثأت عناقيد الألم في اعماقه ، وثار لهذا القول يردد على مسمعيه ، ودفع المجند دفعة كادت تلقيه الى الارض ، وصاح :

– ما بها رجلي ؟ .. أتنازلني فأثبت لك مدى قوتها ؟ .. اريد ان احمل السلاح وامضي الى الساحة اتدرب .. اريد ان ادافع عن اسرتي ، عن حريمي .. الذين حملوا السلاح ليسوا اقدر مني .. رجلي لا تعيقني عن ضرب الاجنبي الذي يهبط علي من السماء ...

واطل عليه الضابط الشاب يستطلع الخبر . فتهيب مرآه ولاذ بالصمت وقد تعلقت به عيناه في توسل ورجاء . وسأله الضابط عما يريد ؟ فأرتج عليه ولم يقو على الكلام ، ورقد احساسه فتحدرت دمعة حبيسة على خده الايسر . فصاح به الضابط مؤنباً :

– ما شاء الله ، أتبكي ؟ كن رجلا وتجلد .. فلا يصلح للقتال بكاء .. ماذا تريد ؟ افصح ..

فتماسك قليلا الى ان شعر بنفسه ترتد اليه ، وقال :

– سيدي الضابط .. حرمتموني من شرف حمل السلاح وانا قادر .. ان رجلي لا تعيقني ابداً ..

فطلب منه الضابط متلطفاً ان يكشف عن كم بنطاله الايسر ، ففعل .. ولما رغب اليه ان يمشي امامه جعل يقرع بقدمه الارض بقوة وعزم وعناد والعيون من حوله تتطلع اليه بامعان ، وقال :

– انها ، يا سيدي الضابط ، مهيضة حقاً .. ولكنها اشد من الارجل السليمة .. اريد ان احمل السلاح لادفع به الشر عن حارتي القريبة من المطار ، عن اسرتي ، عن نفسي .. كيف استقبل العدو اذا هبط في عقر داري وانا اعزل من السلاح ؟ ! .

فهز الضابط الشاب رأسه فيما يشبه الاقتناع ، واومأ اليه ان يتبعه .

وفي المكتب ، تناول الضابط استمارة وقلماً ، وجعل يسأله ويدون :

– اسمك ؟

– « قدري صادق » ..

– عمرك ؟

– ٢٢ سنة ..

– عنوانك ؟

– « باب النيرب » ..

– مهنتك ؟

– عامل نسيج ميكانيكي ..

– وضعيتك العائلية ؟

– متزوج ، وعندي صبي ..

– وقع هنا ...

واشار الى ذيل الاستمارة . فوقع قدري صادق بيد متعرقة راعشة ، في حين كان يسلمه احدهم بندقية جديدة من طراز ٤٩ .

وقال الضابط الشاب :

– بورك فيك ، ايها الفتى .. انك تضرب مثلا رائعاً في البطولة والحرص على البذل في سبيل الوطن .. اني – باسم الجيش – لأهنئك على غيرتك ووطنيتك

فتمتم بكلمات مبهمة شاكراً للضابط الشاب حسن رأيه . ثم قرعت قدمه الارض في تحية عسكرية اداها للشاب الذي رد الى جسده الروح والثقة ، وانطلق الى الساحة يوسد الى كتفه بندقية كالعروس .

* * *

وانضم قدري صادق الى احدى الحلقات التي لم تكتمل .. فجعل العسكري برتبة « رقيب » يشرح الدقائق ، ويبين كيف يحشى مشط الرصاص ، وكيف يسدد الى الهدف ويضغط على الزناد لتستقر الرصاصة في قلب العدو .. بينما كان الضابط الشاب يرقبه ضاحك القسمات من عل ، حيث كان هو من لحظات يرقب المتطوعين بعين لهيفة وقلب كسير .

حلب — فاضل السباعي

صدر اليوم

رسالة الى ناظم حكمت

وقصائد اخرى

تعريب

عبد الوهاب البياتي

من رابطة الكتاب العرب

قدم له

الدكتور علي سعد

الكتاب الذي ستقرأ فيه اروع ما كتبه ناظم حكمت ولوركا وايلوار ومايا كوفسكي وهاوارد فاست من قصائد رائعة محملة بنبضات حارة انسانية فيها روعة الشعر وعذوبته

الثمن ٢٠٠ ق. ل

منشورات مكتبة المعارف في بيروت